مجموع مؤلفات ابن سعدي (٥٩)

نبذة مختصرة إجمالية

عز الإسلام

والإشارة إلى مهمات محاسنه

تأليف
الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله

تم الاعتماد في تحقيق هذا الكتاب على
نشرة الشيخ
محمد بن سليمان بن عبد العزيز آل بسام
رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الإسلام الذي هو الاستسلام لله بالتوحيد باعتقاد كماله، الذي لا غاية فوقه في الكمال الذي متعلقه ما جاءت به الرسل من صفات المولى، وإثبات الصفات على الوجه اللائق بعظمة الله وكماله المطلق، والعلم اليقيني بأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الكائنات؛ دقيقها وجليلها علويها وسفليها، وأنه لا يأتي بالخير إلا هو ولا يدفع الشر إلا هو، وأن النعم كلها من الله لا فرق بين الدينية والدنيوية، ولا بين ما حصل بسبب أو بغير سبب من العبد، فإن الأسباب كلها بيد الله.

ثم امتلأ القلب من تعظيم الله والإنابة إليه في كل الأمور، والتأله والتعبد لله بما شرعه على ألسنة رسله، وطاعته وطاعة رسله خصوصا محمدا صلّى الله عليه وسلّم، الذي نحن مأمورون بالإيمان به وبما جاء به جملة وتفصيلا، معرفة واعتقادا وعملا.

هذا هو حقيقة دين الإسلام ومجمله، والعقائد والشرائع الظاهرة والباطنة المشروعة على لسان رسوله تفصيل لهذا الأصل، فهو دين الله الذي ليس له دين يدان به سواه: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥]. وهو الذي عليه جميع الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم إلى يوم الدين، وقرره على لسان نبيه محمد صلّى الله عليه وسلّم، فأثبت ما جاءت به الرسل من الحق وهيمن على جميع الكتب السابقة؛ بإثبات جميع ما فيها من الحق، ورد ما زيد فيها أو نقص أو حُرِّف، ثم أكمل الله له الدين وأتم عليه وعلى أمته النعمة ورضي لهم الإسلام دينا.

وهو الدين المشتمل على الإيمان بجميع الرسل وما أوتوه من عند الله من عقائد وشرائع

عامة، قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٦]. إلى آخرها، فهو كما ترى قد تضمن جميع الإيمان بكل رسول أرسله الله، وبكل كتاب أنزله الله، وبكل حق كان ويكون إلى أن تقوم الساعة، فلم يبق دين حق إلا دخل فيه واشتمل عليه.

ومن براهينه أنه يأمر بالإيمان بكل حق وصدق وبر وعدل وصواب، وبكل خير وصلاح وإصلاح وهدي ورشاد وإحسان وخلق جميل، وينهى عما يضاد ذلك، وأن جميع محاسن ما عليه الأمم قديما وحديثا قد دعا إليها وأرشد لها وبيّنها بأحسن عبارة وأوضحها وقرب طريقها، وأن كل قبيح وشر قديما وحديثا قد نهى عنه، وحذر وأرشد إلى الطرق المبعدة عنه.

ومن أعظم محاسنه أنه مبني على التوحيد الخالص، والدين الخالص في الاعتقاد والأقوال والأفعال؛ فمن آثار هذا التوحيد إخلاص العمل الظاهر والباطن لله في حقوق الله وحقوق خلقه، والاعتماد الكامل على الله في جلب المنافع ودفع المضار، لعلم الموحِّد أنه المتفرد بالنفع والضر والعطاء والمنع، وأن الخلق كلهم أعجز وأقل من أن يعارضوا إرادة الله ومشيئته.

ومن آثار هذا التوحيد نبذ الشرك والغلو في المخلوقين، وألا يرفع المخلوق فوق منزلته التي أنزله الله بها، ولا يُعطَى من خصائص الربوبية والإلهية شيئا، لعلم الموحد أنه لا مألوه ولا معبود بحق إلا الله، وأن الشرك بالله هو أظلم الظلم وأقبح القبيح.

ثم من محاسن هذا الدين ما يتبع هذا الأصل الجليل من الأوامر الجميلة الكفيلة بصلاح الدين والدنيا والأحوال كلها؛ كالأمر بالصلاة والزكاة والصدقة وأنواع البذل في المشاريع الخيرية، والصيام والحج والعمرة والجهاد لمن عارض الحق ومنع الدعوة إلى الدين الحق، والأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر.

وبر الوالدين وصلة الأرحام والإحسان إلى المماليك والجيران والأصحاب وعموم

الخلق من بذل العلم والمال والجاه، وطلب العلوم النافعة المتنوعة، والعفو عن الناس، وإجابة الدعوة وعيادة المريض وتشييع الجنازة.

والسلام والتحية، وردها بمثلها أو أحسن منها، وتشميت العاطس وإجابته، ومحبة الله وخوفه ورجائه والإنابة إليه في جميع النوائب، والفزع إليه في كل المهمات، والتوكل عليه.

والعمل بالأسباب النافعة والصبر على طاعة الله وعن معصية الله وعلى أقدار الله المؤلمة ابتغاء وجهه، والشكر لله على نعمه، وشكر من أحسن إليك من الخلق، ومحبة ما يحبه الله ورسوله.

والحياء والعفة عن القبائح كلها، والعدل في الأحكام وفي جميع المعاملات والحقوق، وحسن الوفاء والاستيفاء، والوفاء بالعقود والعهود والأمانات كلها، والصدق وترك الغضب والحقد والحسد، والحث على التواضع وعدم التكبر على الحق وعلى الخلق، وترك العجب والخُيلاء، ونهي النفس عن الهوى.

والرضا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا، وحسن الظن بالله والإكثار من ذكره آناء الليل والنهار، والتفكر فيما دعا الله عباده إلى التفكر فيه؛ في آياته المسموعة وآياته المشهودة، والاستدلال به على مدلوله والعمل بمدلوله.

وسن كل سنة حسنة والتحذير من ضدها، والتوبة من جميع المعاصي، والخروج من المظالم ونصر المظلومين وقمع الظالمين، وغير ذلك من الشرائع الظاهرة والباطنة، التي بمجرد ما يتصورها صاحب اللب يجزم جزما لا ريب فيه أن الدين المشتمل عليها هو الدين الحق، وأن كل ما عارضه فهو باطل، وأنه هو الدين الصالح لكل زمان ومكان، وأنه لم يدخل ولن يدخل على الخلق نقص ولا ضرر في دينهم ولا دنياهم إلا من تضييع هذا الدين، الذي كفل كفالة صارمة أن من قام به استقامت أموره وصلحت أحواله، وأنه هو الدين الذي

يصلح العقول والقلوب والأخلاق والآداب والتربية النافعة، ويحفظ من الانهيار إلى الدمار والشقاء، والواقع أكبر شاهد على هذا.

وما من صلاح تسرب إلى أي أمة من الأمم إلا وأصله ومنبعه هذا الدين القويم، وإذا أردت أن تعرف مقداره فزنه بالميزان الصحيح والعقل الرجيح بكل دين خالفه؛ تجد أنه لا نسبة بينها وبينه بوجه من الوجوه.

ويكفي في هذا المقام أن تعرف أن الدين الإسلامي مشتمل على أخبار وشرائع، وأن أخباره كلها ليس منها خبر واحد صحيح قد أتى بما يخالف المعقولات والمحسوسات، ومن ادعى خلاف هذا تبين فساد قوله بأدنى تأمل، بل أخباره نوعان؛ نوع يشهد العقل بصحتها ومطابقها للحق، ونوع لا يهتدي العقل إلى تفصيلها، بل يحار فيها وليس عنده ما يبطلها ويقدح فيها.

وقد أظهر الباري تعالى في هذه الأزمنة المتأخرة من آياته الكونية ومن العلوم الكونية والاختراعات الباهرة ما هو من أكبر الأدلة على ما أخبر الله به ورسوله من أمور الغيب، فلقد كان الكفار الملحدون ينكرون ما أخبر الله به ورسوله من الأمور التي يستبعدونها على قُدَر المخلوقين؛ فأنكروا البعث بعدما كانوا ترابا ورفاتا واستبعدوا الإسراء برسول الله صلّى الله عليه وسلّم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في ليلة واحدة، واستبعدوا تنادي أهل الجنة وأهل النار مع البعد السحيق، واستبعدوا كثيرا من أمور الغيب استنادا على مجرد عقولهم الفاسدة، ولم يزل الملحدون يستبعدون وينكرون كل ما لم يشاهدوه، فأراهم الله في هذه الأوقات ما يكذبهم وينقض استبعاداتهم مما شاهدوه في الآفاق وفي أنفسهم.

فإذا كان المخلوق الناقص من كل وجه ضعيف العلم ضعيف الإرادة ضعيف القدرة ضعيف العمل قد علمه الله ما لم يكن يعلم من علوم الطبيعة والمادة، حتى تمكن الناس من الطيران في الهواء والغوص في لجج البحار، والتخاطب من مشارق الأرض ومغاربها، وغير ذلك من المخترعات الحديثة، فكيف بمن هو على كل شيء قدير الذي انقادت لقدرته

عناصر العالم العلوي والسفلي ونفذت مشيئته في جميع الكائنات، وأحاط علمه بكل شيء، وأظهر البراهين القاطعة والأدلة الواضحة على صدق ما أخبر به، وأخبرت به رسله من أدلة عقلية ونقلية وفطرية وكونية؟ فبعدا للمكذبين و﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧، ٨].

وكذلك الشرائع والأوامر والنواهي كلها على وفق الميزان الصحيح، لأنها تضمنت الأمر بكل خير نافع والنهي عن كل شر ضار، فما أمر بشيء فقال العقل: ليته نهى عنه، ولا نهى عن شيء فقال العقل: ليته أمر به، ولا أخبر بشيء فجاء على خلاف المحسوس المعقول.

وما من علم صحيح يوجد في أي أمة كانت إلا وقد دعا إليه وأرشد، ونبه الخلق على سلوك طريقه، وما من عمل صالح نافع إلا وقد أمر به وأرشد إليه، وكلما ازدادت الجماعات أو الأفراد في القيام به علت درجتهم وارتقوا في درج الكمال.

ولقد خضعت أرباب العقول لهدايته وشرائعه وإصلاحه الكامل، ولقد حاول أعداؤه الانتقاد على بعض أفراد الشرائع لفرط العداوة والهوى والتعصب، فبيّن بالبراهين الواضحة بطلان انتقاداتهم، وأن الشرع مطلقا من دون قيد وشرط قد مشى على الصراط المستقيم أصولا وفروعا، وأن كل أمر خلصت مصلحته أو كانت مصلحته أرجح من مضرته فقد أمر به، وما خلصت مفسدته أو كانت المفسدة راجحة على المصلحة إلا وقد نهى عنه، واعتبر هذا الأصل في العبادات والمعاملات والجنايات وغيرها تجدها شاهدة لهذا الأصل الشرعي المؤيد بالبراهين.

ومن محاسن هذا الدين ما أمر به من أداء الحقوق للأهل والأولاد والمماليك، وحقوق الراعي والرعية بعضهم لبعض، فكلها مطابقة للعدل والصلاح والإصلاح، وقد نبهنا على بعض هذا الحكم في كتابنا **السؤال والجواب**.

وكذلك المواريث وتفاصيلها الجميلة والمعاملات الواسعة بين الناس كلها مبنية على

العدل والمصلحة وتمام الانتظام المشتمل على مصالح المعاش والمعاد.

ومن محاسنه ما شرعه من الحدود على الجرائم وتنوعها وصفاتها بحسب الجرائم، لما يحصل بها من تمام الردع والزجر على أكمل وجه وأعدله.

ومن أجَلِّ محاسن هذا الدين أنه أحلّ كل طيب من المآكل والمشارب والملابس والمناكح والأقوال والأفعال، وحرم كل خبيث منها، وأنه ما من طريق محرم يتوهم المتوهم أن الحاجة أو الضرورة تدعو إليه إلا وفي الطريق المباح غنية عنه وفسحة مع ما اشتمل عليه المباح من المنفعة والخير.

وبالجملة فقد بعث الله محمدا بالهدى ودين الحق، فكل علم نافع وعمل صالح فقد دعا إليه وجاء به، وظهر ذلك في أخلاقه الكريمة وأخلاق أمته القائمين بدينه، فكان في أخلاقه الجميلة المتنوعة وأخلاق أمته القائمين بما جاء به علما وعملا، وآثار هذا الدين في علومهم وأخلاقهم وتربيتهم العالية وما فاقوا به الأولين والآخرين؛ أكبر شاهد ودليل على كمال دينهم، الذي أوصلهم إلى ما وصلوا إليه.

وما حصل النقص على المسلمين إلا بتركهم لبعض دينهم؛ فحيث كان قيامهم بالدين تاما كانت أحوالهم كلها مستقيمة، وحيث ضعف قيامهم به حصل النقص[1] بحسب ذلك، فهذا برهان على أن الصلاح يدور مع دين الإسلام وجودا وعدما.

فأصل الصلاح وفرعه وقيامه وتمامه بسلوك دين الإسلام الذي هو الصراط المستقيم والحق المبين، وما سواه من كل دين يعارضه فهو منبع الشر والفساد والإفساد للعقائد والأخلاق والأعمال والدين والدنيا وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ولو لم يكن من محاسن هذا الدين - الإسلام - إلا هذا القرآن العظيم، الذي هو روحه وأساسه ومنبعه، الذي احتوى على ما لم يحتو عليه كتاب طرق العالم منذ أنشأ الله

(١) في المطبوع: «النقض». ولعل المثبت أنسب للسياق.

العالم؛ حيث احتوى على كل علم نافع ومعارف صحيحة، وأخبار صادقة، وعقائد جليلة، وأحكام جميلة، وأخلاق حميدة، وصلاح وإصلاح للدين والدنيا جميعا، وبلاغة عالية وغيوب صادقة، مطابقة وإحقاق لكل حقّ وإبطال لكل باطل، لكفى به شرفا وفضلا وعلوّا وارتفاعا.

وهو الكتاب الذي لو جعلته جميع الأمم أمامها لقادها إلى كل سعادة وفلاح، ولمنعها من كل انهيار وشقاء، وليس هذا مجرد دعوى ومبالغة بل هو أقل ما يقال عن القرآن، ومن عنده أدنى فهم وإنصاف اعترف بذلك بلا ريب، لأنه مشتمل على جميع وجوه الإعجاز الذي هو آيات بينات وبراهين ساطعات من جهة لفظه وحسنه وبلاغته وأسلوبه العجيب، بحيث لا يقاربه أي كلام كان.

ومن جهة ما فيه من علوم الغيب التي وقعت مطابقة للواقع في زمان النبوّة وبعده لا تزال تظهر حينا بعد حين، ومن جهة اتفاق معانيه وعدم الاختلاف، فلو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا.

ومن جهة ما اشتمل عليه من العلوم الراقية الشرعية والتشريعية والكونية، ومن جهة عجز الخلق عن معارضته ومناقضته وإبداء خلاف ما أخبر به مع التحدي التام للأولين والآخرين، فلا تعارض ألفاظه ولا معانيه.

ومن جهة تحقيقه لأمور كانت مجهولة للخلق من المسائل العلمية والتاريخية التي لم تكن موجودة في زمن البعثة كما قرر ذلك حكماء هذه الأمة في الأزمنة الأخيرة، فهو أكبر دليل وبرهان على نبوّة محمد صلّى الله عليه وسلّم، وأن الدين الذي استمد منه هو دين الله حقا الذي شرعه لعباده وجعله موصلا إلى سعادة الدنيا والآخرة وبالله التوفيق.

قال ذلك وكتبه الفقير إلى الله من جميع الوجوه عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي غفر الله له ولوالديه وللمسلمين، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم، ونقله من خط المؤلف الفقير إلى مولاه محمد بن سليمان بن عبد العزيز آل بسام بتاريخ

٣/ الحج/ ١٤١٢هـ.

تمت مراجعته حسب الإمكان بيد كاتبه محمد بن سليمان البسام وابنه منصور.